صراع الحضارات في فكر مالك بن نبي

د. فاطمة بور

جامعة بودواو بومرداس

borfatima@yahoo.fr

ملخص البحث

يعتبر مالك بن نبي من المفكرين الذين اهتموا بدراسة الحضارة ومشكلاتها، وبما أنه عايش الفترة الاستعمارية في الجزائر فقد وقف على الممارسات الوحشية التي تبناها الاستعمار في تعامله مع الشعب الجزائري، ولما سافر إلى فرنسا زادت معرفته بهذا الاستعمار عن طريق التهميش والاقصاء الذي كان يفرضه على المسلمين عامة والجزائريين خاصة. ومن هنا بحث مالك بن نبي عن حقيقة هذا الصراع القائم بين حضارتين متباينتين من حيث القيم والأهداف، فألف مؤلفات كثيرة تدور كلها حول مشكل الحضارة، فتتبع الصراع الثقافي والديني والاجتماعي وما نتج عنه من آثار سلبية على الفرد والمجتمع، فخلف الاستعمار في البلدان المستعمرة جيلا مشوه الهوية، كما ترك وراءه مجتمعات تعمها الفوضى الأخلاقية والعلاقات المتقطعة التي حكمت على كل عمل بالفشل لأنه يفتقر للفاعلية التي يستوجبها العمل الجماعي، كما عمد الاستعمار إلى فرض هيمنته على كل نشاط فكري يظهر في أي بلد إما لوأده في مهده أو التشكيك في نوايا المنادين به وبذلك يضمن محاربة المجتمع من الداخل لهذا النشاط، كما ركز مالك بن نبي على ضرورة حوار الحضارات لكن دون إملاء أي شروط من الطرفين.

Abstract:

Is Malik bin Nabi thinkers who were interested in studying the civilization and its problems, and since it Ayesh colonial period in Algeria stood on the brutal practices adopted by colonialism in his dealings with the Algerian people, and when he traveled to France increased knowledge of this colonization by marginalization and exclusion, which was imposed on Muslims General and special Algerians. Hence, the search Malik bin Nabi from the fact that between the two civilizations contrasting in terms of the values and objectives of the conflict, in motion, many books revolve around the problem of civilization, widely followed cultural, religious and social conflict and the resulting negative effects on the individual and society.

****

مقدمة:

منذ القدم والثقافة الغربية محملة بأوهام كثيرة تجعل من الإسلام عدوا تاريخيا وتقليديا للغرب، وليس مصدر هذه الأوهام دينيا فحسب بل أضيفت إليه على مر الأيام والتاريخ عوامل سياسية واقتصادية زادت من شدة الصراع وجعلته يتخذ أبعادا خطيرة تهدد كيان الأمة الإسلامية.

وقد عني فكر مالك بن نبي بحقيقة العلاقة التي تربط الحضارة العربية الإسلامية بالحضارة الغربية، وقد أفرد مؤلفات تعالج هذه القضية، ككتابه" الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، والذي بين من خلاله الأزمة الفكرية التي عانت ولا تزال تعاني منها البلاد الإسلامية. والتي ولدت صراعات على مستويات عدة عادت على الأمة الإسلامية بمضار آنية في الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومضار مستقبلية باتت تلوح في الأفق وهو ما تعلق بالبنية الأخلاقية المشكلة لروح المجتمع الإسلامي، ومن هنا نطرح التساؤلات الآتية لملامسة حقيقة هذا الصراع وتوضيح أسبابه الكامنة وراءه وبعض الصور التي ارتسمت من خلال فكر مالك بن نبي:

فما مفهوم الصراع الحضاري؟ وما الأبعاد التي اتخذها هذا المفهوم في فكر مالك بن نبي؟

1- مفهوم الصراع الحضاري:

أ) لغة:

" صرع: الطرح بالأرض، الإنسان صارعه فصرعه يصرعه صَرَعاً وصَرِعاً، الفتح لتميم والكسر لقيس، وصرع مصروع والجمع صرعى والمصارعة[1]

ب) اصطلاحا:[2]

الصراع في الأصل نزاع بين شخصين يحاول كل واحد منهما التغلب على الآخر بقوته المادية، كالصراع بين الأبطال الرياضيين أو الصراع بين الدول في الحروب.

فالصراع بدأ في الكون مع بداية الحياة، فهو" النزاع والمغالبة بين القوى المتخالفة أو المتباينة، كالصراع على الاختصاصات وصراع المصالح وصراع القوانين والصراع المسلح بين الدول".[3].

أما في علم النفس فنجد المصطلح بمعنى" وجود دافعين أو رغبتين متعارضتين أو ينتج عن وجود حاجتين لا يمكن اشباعهما في وقت واحد مما يؤدي إلى التوتر الانفعالي والقلق والاضطراب في الشخص، وهو من أهم الأسباب النفسية المسؤولة عن المرض النفسي"[4].

2-مفهوم الحضارة:

أ) لغة:

وردت كلمة حضارة في كثير من المعاجم العربية القديمة والحديثة، نذكر منها ما جاء في المعجم الوسيط:

" حضر فلان حَضارة، حِضارة: أقام في الحضر والغائب حُضُوراً: قَدِمَ، والشيء والأمر: جاء والصلاة: حلّ وقتها. عن فلان: قام مقامه في الحضور والمجلس، ونحوه: شهده الأمر فلاناً: نزل به وفي التنزيل العزيز:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[5] خطر بباله، والأمر بخيْر: رأى فيه رأياً حسناً.

أحضر الفرس أو الرجل: وثب في عدوه فهو مِحْضَارٌ مِحضِيرٌ (ج) محاضير، والشيء: أتى به، وقوله تعالى:﴿وَأُحضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[6]، مالت إليه. وذهنه للأمر: وجهه إليه. حاضر القوم: جالسهم وحادثهم بما يحضره، ومنه: فلان حسن المحاضرة. حضّر الشيء: أعدّه، يقال: حضّر الدواء، وحضّر الدرس.

تحضّر: حضر وتخلق بأخلاق أهل الحضر وعاداتهم.

الحاضر: القوم النُّزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه.

الحاضرة: القوم الحضور وحاضرة الشيء: القريبة منه، في التنزيل:﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[7].

وخلاف البادية: وهي المدن والقرى والريف.

الحضارة: الإقامة في الحضر، قال القاطامي:

وَمَنْ تَكُنْ الحضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ * فَأَيُّ رُجَّالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا

وضد البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطوّر الإنساني، ومظاهر الرقيّ العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر"[8].

- أما في القاموس المحيط فترد مادة "حضر" كالآتي:

"حضر حضوراً وحضارة: ضد غاب، كاحتضر وتحضّر، يقال: حَضَرَهُ وتَحَضّر هُو أحضر الشيء وأحضره إيّاه وكان بحضرته، وحَسَنُ الحِضْرَةِ إذا حضر بخير.

والحِضْرة والحاضِرة والحِضَارةُ: ويفتح: خلاف البادية.

والحضارة: الإقامة في الحضر، والحاضرة: خلاف البادية"[9].

- وفي لسان العرب نجد حضارة على النحو التالي:

"كلمة حضارة مشتقة في اللغة العربية من فعل "حضر "الذي هو نقيض غاب، ومنه المغيب والغيبة، ومشتقات هذه المادة هي، حضر، يحضر، حضوراً وحضارة بحضرة الماء أي عنده، وحضرت الصلاة. والحضرة خلاف البادية، والحاضر المقيم في المدن والقرى. والبادي المقيم في البادية، والحَضْرَة والحَضَرُ والحاضِرة: خلاف البادية: وهي المدن والقرى، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار"[10]

أما في المعاجم الحديثة فنجد حضارة بمعنى: "حضر، حضوراً: قدم، أقبل، حضر احتفالاً: شهد، تابع عملاً بانتظام واستمرار: حضر دروسا.

نزل به وافاه وأدركه، حلّ به.

حاضرة (ج) حواضر: المدن والقرى خلاف البادية، مدينة كبيرة. حضارة، حَضَرَ خلاف البداوة (ج) حضارات: مظاهر الرقي العلمي والرقي الأدبي والاجتماعي في الحضر، أو هي مجموعة الميزات والخصائص الاجتماعية والدينية والخلقية والتقنية والعلمية والأدبية والفنية عند شعب معين"[11].

- في اللغة الأجنبية:

وإذا رجعنا إلى المعاجم الأجنبية كالمعجم الإنجليزي "إكسفورد" ألفينا أن: "مصطلح الحضارة « Civilisation »مشتق من الجدر اللاتيني« Civites » : مدينة و« Civis » : ساكن المدينة أو « Civilis »: مدنيّ، ويقصد به الاستقرار في الحواضر والمدن مع ما يستتبعه من اجتماع وتنظيم"(12).

وإذا تتابعنا المصطلح في معجم « La Rousse » فنجده:

« Civilisation : Action de civiliser, fait de se civiliser, ensemble cohérent de sociétés ou de cultures, ensemble des caractères sociaux, culturels, qu'elles partagent. Civilisation africaine, chinoise, européenne.
Période de rayonnement, de particulière richesse culturelle d'une ou de plusieurs sociétés, culture, ensemble de traits correspondent.
La civilisation grecque à son apogée. Ensemble des comportements, des valeurs supposés témoigner du progrès humain, de l'évolution positive des sociétés »(13).

نلاحظ أن مصطلح "الحضارة" لا يكاد يختلف مفهومه بين المعاجم العربية والمعاجم الأجنبية، فهي تجمع على أن الحضارة والحضر إنما هم سكان الحواضر والمدن وهي خلاف البادية، وهي كل المظاهر والأنشطة التي يمارسها أهل هذه التجمعات.

ب) اصطلاحا:

تعرف الحضارة في الإصلاح على أنها: "طور طبيعي أو جيل من أجيال الطبيعية في حياة المجتمعات المختلفة، وهكذا البداوة، ولكن البداوة أقدم والبدو أصل للحضر"(14)، فالحضارة إذا هي مرحلة موالية للبداوة التي كانت أصل المجتمعات فهي: "نمط من الحياة المناقض للبداوة، المنشئ للمدن والأمصار، المتصف بفنون منتظمة من الملك والإدارة ومكاسب العيش والبالغ درجة من المصانع والعلوم، ومن وسائل الدعة والرفاه"(15)، فالبداوة والحضارة طوران طبيعيان من أطوار المجتمعات البشرية، والحضارة آخر هذه الأطوار، وهي غاية العمران كما يشير إلى ذلك ابن خلدون الذي كان من الأوائل الذين عرّفوا الحضارة

بقوله: "هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه، من المطابخ والملابس والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله"[16].

يرى كذلك أن: "الحضارة هي أحوال زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرّفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر"[17]

وبهذا ركّز ابن خلدون في تعريفه للحضارة على الجانب المدني أو العمراني أو المادي أما رفاعة الطهطاوي (ت 1873م) يرى أن "للتمدن أصلين: الأول معنوي وهو التمدن الأخلاقي والثاني مادي وهو التقدم في المنافع العمومية"[18]

أما نصر عارف فيرى أن الحضارة: "جملة من الظواهر الاجتماعية ذات الطابع المادي والعلمي والفني والتقني الموجودة في المجتمع، والتي تمثل مرحلة راقية في التطوّر الإنساني"[19]، وبذلك فالحضارة من وجهة نظره تقاس بمدى الانجازات التي تقام في مرحلة ما.

أما حسين مؤنس فيشير إلى أن الحضارة في مفهومها العام هي: "ثمرة لكل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته

سواء أكان الجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أو غير مقصود"[20].

أما عبد الحميد السامرائي فينظر للحضارة على أنها: "استمرار تاريخي انطلاقا من توكيد إدارة الفعل والبناء، وفسح المجال أمام الفئات المثقفة لأداء مدركاتها عبر منطلقات تنموية، هدفها التعبير والتعمير والبناء الشامل المستند إلى العلم والمعرفة بناء على فكر عالمي قوامه التأثر والتأثير الإيجابي والمساهمة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية"[21].

وبناء على هذا فالحضارة بالنسبة له إرث إنساني أسهمت وستسهم في إنجازه الشعوب الإنسانية.

ويعرف "وول ديورانت" الحضارة على أنها: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي. وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: المواد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث تنتهي الإضرابات والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع

والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها"[22].

إن ديورانت يجعل الحضارة نسقا مجتمعياً مؤسساً على مقومات رئيسة متشابكة ذات صلة بالاقتصاد والسياسة، والأخلاق والعلوم والفنون، تنحو نحو غاية أساسية هي مساعدة الإنسان على تنمية رصيده الثقافي وتقوية منتجه المعرفي، ويرى أن الحد الفاصل بين الحضارة واللاحضارة كون أفراد المجتمع ينعمون بالطمأنينة والاستقرار أم لا، وإذا كان الأمن نزعت إرادتهم الحرّة نحو البناء والخلق والإسهام في ترقية الحياة البشرية كلها.

وقد حلّل "ألبيرت شفيتسر" الحضارة إلى جوهرها إذ يرى أن: "العناصر الجمالية والاتساع الرائع في معارفنا المادية وقوانا، كل هذا لا يكون جوهر الحضارة، وإنما يتوقف هذا الجوهر على الاستعدادات العقلية عند الأفراد والأمم... إن الحضارة هي التقدم الروحي للأفراد والجماهير على سواء"[23].

وربط المؤرخ الألماني "سبنجلر" الحضارة بمفهومي الطبيعة والتاريخ فعدّها "ظاهرة ملازمة للطبيعة، وطوراً تاريخياً يمر به المجتمع الإنساني لما يجتاز مرحلة التأسيس والنشوء، ويعقبه في الدورة الحضارية للدول طور التدهور والسقوط"[24]، وكأننا بهذا العالم يحاكي ما سبق أن ذكره ابن خلدون في القرن 8 للهجرة.

أمّا المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" الذي ركز على أصل الحضارة ومنشئها، فقدم نظرية منفردة في هذا السياق هي "نظرية التحدي والاستجابة" فالحضارة في ظنه لا تنشأ إلا "كردّ فعل لعوامل خارجية أو داخلية أو لتحديات بشرية أو طبيعية، فالمجتمع البشري يواجه في حياته صعوبات عديدة يتحتم عليه مجابهتها، فإذا عجز المجتمع عن ردّ خطرها فقد استقراره، وأما إذا أفلح في مقاومة التحدّي فإنه آنذاك يقوى ويستمر ويؤدي ذلك إلى نشوء ما يسمى حضارة"[25]

أما الأنثروبولوجي الإنجليزي "إدوارد تايلورد" (1832م، 1917م) فقد عرّف الحضارة على أنها: "درجة من التقدم الثقافي، تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية في درجة متقدمة"[26].

أي أن التحضر في نظر هذا العالم مرتبط بالتاريخ الثقافي، إذ يتحقق خصوصا عندما يبلغ تطور أشكال المعرفة والثقافة درجة راقية من التقدم والتبلور والنضج.

ونصل إلى تعريف مالك بن نبي للحضارة إذ يصفها أنها "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه"[27].

فأساس الحضارة عنده في شموليتها وفي توفيقها بين الفكر والاقتصاد لتكون نتاجاً لحركة المجتمع، فبدونها لا يكون المجتمع مجتمعا، لأن من شروط المجتمع البشري عنده أن يكون له حضارة، إذ أن الجماعات الساكنة لها حياة دون غاية، فهي تعيش إذاً في عهد ما قبل الحضارة.

وعلى هذا ما يوفره المجتمع لأبنائه من وسائل تثقيفية وضمانات أمنية وحقوق ضرورية، تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع على تقديمها للأفراد، مما يضمن تحضرهم.

وفي تعريف آخر يرى الحضارة على أنها "الشمس التي تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر"[28].

فتعريفه للحضارة يعتمد على منهجين:

1. تحليلي تركيبي.
2. وظيفي.

فللأول يسوق مثال المصباح الذي نستنير به، ويتساءل متى يصبح تسمية هذا المصباح بالإنتاج الحضاري؟؟.

والحقيقة أنه لا يمكن وصفه بذلك إلا إذا كان هذا المصباح والأفكار التي صاحبت إنجازه والآدميون الذين قاموا بعملية الإنجاز، يمثلون جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معينة.

ففي الحضارة جانبان، الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهامها الاجتماعية، وشروطها المادية في صورة إمكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بالوظيفة الحضارية[29] وعند توفر الإرادة والإمكان يمكن للمجتمع الوصول بأفراده إلى انجاز حضارة يشارك في تفعيلها كل عنصر بما أتيح له من إمكان وبما يمتلكه من إرادة نحو هذا الهدف الجماعي.

3- مظاهر الصراع الحضاري عند مالك بن نبي:

ينطلق مالك بن نبي في نظرته للصراع الحضاري من رؤية واقعية، حيث عايش الاستعمار ووقف على وحشيته وجبروته، وعانى هو ومن مثله من التهميش والتضييق في ظله، فمالك بن نبي يتحدث عن الاستعمار الفرنسي ويصفه بالشيطان، إذ يقول:" إن الاستعمار شيطان...يحسب حسابا لكل أعماله وأقواله، حتى لا ينفك الاتصال بين مصالح مركب الأفراد وبين انفعالات الشعب "[30].

ويظهر الصراع الحضاري حسب ابن نبي على مستويات عدة منها:

- الصراع الفكري:

يعمل الاستعمار على إفشال كل فكرة من شئنها تغيير المجتمع نحو الأفضل، فهو" يقوم بامتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة بأي طريقة ممكنة حتى لا نتعلق بفكرة مجردة، ومن البديهي أنه سيحاول تعبئتها لحساب فكرة متجسدة تجسيدا تصبح معه أقرب إليه منالا، لأنه يمكنه مقاومتها إما بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء"[31].

فابن نبي يرى أن الاستعمار يرصد كل تحرك فكري في البلدان العربية والإسلامية ويتفنن في خلق طرق لإجهاض كل الأفكار التي يراها تمس بمصالحه، ليضمن فرض هيمنته على العالم الإسلامي.

" ففي كل نشاط فكري على العموم والنشاط الفكري المتصل بالإسلام على الخصوص يقع هذا النشاط مباشرة تحت مجاهر سميتها مراصد الصراع الفكري في العالم حتى لو سخرت بعض الشخصيات أو بعض الجهات الإسلامية لتضييق الخناق على هذا النشاط، وأصحاب الأمر ليسوا في بلادنا بل خيوطهم أحيانا تتسرب من حيث لا ندري إلى عقولنا، بمعنى أننا ننساق وفق خططهم دون أن نشعر"[32].

- الصراع الثقافي:

إن تعريف مالك بن نبي يتضح في قوله:" أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه"[33].

فالهوية العربية الإسلامية تجد نفسها أمام متناقضين، فهي قائمة على الموروث الثقافي التقليدي الذي ورث عن الأجيال السابقة، والاقتباس من الغرب الذي بدأ يهددها بالضياع وتشويه الهوية.

" فنشأ الصراع بين الثقافة التقليدية الموروثة والثقافة الغربية المجلوبة، كما ميز هذه الفترة ...المعارك العنيفة التي حدثت بين رواد الحرية والتقدم من جهة ودعاة الجمود والاستقرار من جهة أخرى"[34].

فالصراع الثقافي حسب ابن نبي لا يقل خطورة عن الصراع الفكري، لأن الصراع الفكري الذي ينتج عنه شلل في كل نشاط تغييري فإن الصراع الثقافي يضرب الهوية الثقافية للفرد فيجرده من انتمائه لأمته فيصبح فردا مطموس الملامح ليس له ماض يفتخر به ولا مستقبل يسعى لتحقيقه، فيسهل التحكم به وتوجيهه في أي اتجاه يرغب فيه الاستعمار.

"والعالم الإسلامي اليوم خليط من بقايا موروثة عن عصر ما بعد الموحدين ومؤثرات ثقافية حديثة ...وهو خليط لم يصدر عن توجيه واع أو تخطيط علمي وإنما هو مجموعة رواسب قديمة لم تصف من طابع القدم ومستحدثات لم تتم تنقيتها"[35].

فالعالم الإسلامي إذن مفتوح على مصراعيه لكل ما يأتي من الغرب بغته وسمينه، وهذا ما يشكل التبعية الثقافية التي تهدف إلى" فرض الاغتراب اللغوي والثقافي وطمس معالم الشخصية العربية الإسلامية وإغراق المجتمع العربي بنتاج ثقافي استهلاكي "(36).

وتشخيص مشكلة الثقافة في البلدان الإسلامية خاصة والبلدان النامية عامة ينم بحق عن أزمة ثقافية تجتاح بلدان العالم الثالث، وهذا ما استخلصه مالك نتيجة معالجته للمشكلة، وهذه الأزمة حسبه تظهر في الواقع الثقافي الذي يشكو تعذرا في تركيب عناصر الثقافة ضمن إطار تربوي يتمثله العالم في سلوكيات ثقافية.

ويرى مالك بن نبي أن الصراع الثقافي يظهر جليا فيما أطلق عليه القابلية للاستعمار، وهو المرض الذي أصاب الشعوب المستعمرة سابقا، والذي عمد الاستعمار إلى أن يفقد مناعته عن طريق ابتعاده عن ثقافته وتاريخه ولغته وعاداته وقيمه. مما يجعله كالريشة في مهب الريح، فضاعت هويته فنشأ جيل ضعيف يحتقر العمل ويرفض الأخلاقيات ويؤمن بالاستهلاك واللهو.

فمن أهم المشكلات الثقافية التي تتخبط فيها الأمة كذلك، تلك الفوضى التي تعتري كل ميادين الحياة، سواء الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية، أو الاقتصادية أو حتى الأيديولوجية. "فشكل النهضة الإسلامية الراهن هو خليط من الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب ومن مواقف التدين أيضا"(37).

والمفروض حسب مالك بن نبي أن أي مجتمع ناشئ يتهيأ للنهضة فلا بدّ له من عناصر تقليدية ورثها عن أجداده بجانب عناصر حديثة وهي عموماً مستعارة من مجتمعات أخرى، لكن يجذر بهذا المجتمع الناشئ أن يحلل هذه العناصر ويكيفها بما يتوافق وشروط نهضته، لكن إذا استعار هذه الشروط كما هي وحاول تجسيدها في مجتمع لم تولد فيه، فإنها تصبح حينئذ مجرّد تراكمات وفوضى لا نفع منها، بل بالعكس فهي تضرّ أكثر مما تنفع، وذلك راجع لظاهرة الاقتباس التي تفرض على المجتمع الناشئ إما لحاجته الملحة

والضرورية وإما لأمر علوي يفرض عليه، هذا الاقتباس الذي لا يخضع لمقياس أو نقد، ينتج خليطا من الفوضى في الميادين الفكرية والخلقية.

وهذا لا يعني أن مالك بن نبي كان ضد فكرة الاستفادة من تجارب الآخرين، بل نجده يصرح في الكثير من مؤلفاته بموقفه من هذه التجارب التي تحمل الغث والسمين، فهي دروس يجب الاستفادة منها، فمثلا في قوله: "هذه التجربة التي تعد درسا خطيرا لفهم مصائر الشعوب والحضارات، هي جد مفيدة لبناء الفكر الإسلامي، لأنها صادفت أعظم ما تصادفه عبقرية الإنسان من نجاح، وأخطر ما باءت به من إخفاق، وإدراك الأحداث من الوجهين كليهما ضرورة ملحة للعالم الإسلامي في وقفته الحالية، إذ هو يحاول ما وسعته المحاولة أن يفهم مشكلاته فهما واقعيا، وأن يقوّم أسباب نهضته كما يقوّم أسباب فوضاه تقويما موضوعيا"(38)

فمالك بن نبي يشير إلى ضرورة تقويم هذه التجارب، والوقوف على أوجه النقص فيها ونقاط العظمة والقوة فيها أيضا، لتظفر الصفوة المسلمة إلى حد بعيد بمنوال تنتج عليه فكرها ونشاطها دون الذوبان في النموذج الغربي أو الوقوع في مشكلة الفوضى.

- الصراع الديني:

إن الدين عند الغرب ليس سوى ظاهرة اجتماعية أو قضية فلسفية يمكن دراستها وإخضاعها لمستجدات العصر، ولا يهتم إلى ما سينتج عن ذلك من نتائج سلبية كانهيار العقيدة ودمار القيم في المجتمع. والصراع الديني تمثل في عدة مظاهر" الاضطهاد الديني في كل البلدان الإسلامية المستعمرة، ففي الجزائر مثلا أخذ الاستعمار غداة الاحتلال يحول المساجد إلى كنائس وثكنات عسكرية وإلى مقاهي وبارات ذلك فضلا عن المساجد التي دمرت بأمر من السلطة الاستعمارية"(39).

- الصراع الاجتماعي:

يسعى الاستعمار على هذا الصعيد إلى فك العلاقات الاجتماعية و" إذا وصل المجتمع إلى هذا الحال وإذا تفككت شبكة العلاقات الاجتماعية وظهر التوتر في خيوطها تصبح عاجزة عن القيام بنشاط مشترك بصورة فعالة، فذلك أمارة على أن المجتمع مريض وأنه ماض إلى نهاية"[40]

وهذه الأمراض حين تنخر في مجتمع ما فإنها تهدد كيانه بالفساد وتقوض معالمه المتمثلة في جهاز الدولة وشبكة العلاقات الاجتماعية، فإننا إذا عدنا للمجتمع المسلم في بدايته نجد أن "أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار والمهاجرين، وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقاته الاجتماعية، حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا"[41].

فالإسلام سعى دائما لأن يكون المسلمون أمة واحدة، تربطهم أواصر المحبة والأخوة والإيثار، فلا يكتمل إيمان المسلم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه، لأن قوة الأمة تنبع من شعور الإنسان أنه شخص من مجموعة، فيعمل على بقائها وتطورها، لكن إذا تحللت هذه العلاقات، أصبح المجتمع في موقف يُهدّد فيه بالانهيار، وهذا ما أشار إليه ونبأ به النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السبيل، ولينزع الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: "وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"[42].

فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث استحضر صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية أي عندما لا يعود مجتمعا، بل مجرد تجمعات لا هدف لها ولا طموح ولا مصالح مشتركة، فهي كغثاء السيل.

فمالك بن نبي يرى أن أول عمل "في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فرداً « Individu » إلى أن يصبح شخصا « Personne » وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزاعات اجتماعية تربطه بالمجتمع"(43).

فالفرد الذي يعمل في نطاق ذاتي لا يمكنه أن يصنع حضارة، لكن الشخص الذي يعمل في إطار مجموعة، كلما كانت الشبكة الاجتماعية أوثق، كلما كان العمل فعالا مؤثرا في هذا المجتمع، بينما إذا تحللت هذه العلاقات يصبح المجتمع عاجزا تماما عن أداء نشاطه المشترك، فيتوقف عن أن يكون مجتمعا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.

"فشبكة العلاقات الاجتماعية هي التي تؤمن بقاء المجتمع، وتحفظ له شخصية، وأنها هي التي تنظم طاقته الحيوية لتتيح له أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ"(44). ولم يتوان مالك بن نبي عن ذكر دور المستعمر في حل الشبكات الاجتماعية للشعوب المستعمرة طبعا لكي يتسنى له السيطرة عليها بسهولة، فالاستعمار لا تكمن خطورته في الهدم والتخريب واشعال نار الحرب بالدبابة والمدفع، بل ما هو أخطر من ذلك حين يعمل على تحطيم علاقات المجتمع "ولسنا نستطيع، بكل أسف وبتأثير أوضاعنا العقلية، أن يفهم عمل الاستعمار إلاّ ريثما يثير ضجيجا، كضجيج الدبابة والمدافع والطائرة، أما حين يكون من تدبير فنان، أو من عمل قارض فإنه يغيب عن وعينا لسبب واحد هو أنه لا يثير ضجيجا"(45).

وأخطر أساليب الاستعمار التي زرعها في المجتمعات العربية ، فكرة المستحيل التي أصبحت وكأنها نظارة سوداء يرتديها أفراد المجتمع، فتجد شرائح المجتمع باختلافها لا تكاد ترى في الواقع الذي نعيشه إلا الكآبة والنقص والضعف والإحباط، لأننا صورنا في أفكارنا هذا الواقع الذي أملاه علينا الاستعمار، لكي يضمن أن نبقى في مستنقع راكد من الأفكار المدمرة والمحبطة لكل جهد قبل أن نحاول القيام به حتى "ولسوف تلاحظ أن الرجل يطلق (الواقع) لا على ما يراه مثلك بعينية، بل على ما يفكر فيه دون الرجوع لأي مقياس من التاريخ أو الاجتماع، فتكوينه العقلي يمنعه من أن يرى ما هو أمام عينية بلحمه

وعظمه، كما أن هذا التكوين هو الذي يمنع الموظف الكبير في الإدارة من أن يدرك الفرق الضروري بين تفاهة الموظف وضروريات الوظيفة"[46].

وقد شبه مالك بن نبي هذه الأفكار التي يبثها الاستعمار عبر وسائل الإعلام بحبات الرمل التي تكفي حبّة واحدة لإيقاف محرّك، إذا ما تسربت إلى أحد أجهزته، فهذا شأن علاقاتنا الاجتماعية في الأوطان العربية والإسلامية، لا نكاد نستيقظ في اليوم التالي حتى نجد عنصراً من عناصر التفرقة بين الشعوب، التي تزيد في الهوة اتساعا، مما ينذر بالتمزق في تلك العلاقات، بل والأخطر من ذلك أن هذا التمزق أصبح يهدد أفراد العائلة الواحدة بل حتى الأسرة الواحدة، فأصبح الناس ينفرون من بعض العادات التي كانت سببا في الالتقاء والاجتماع، مرة بدعوى الخرافات ومرة بدعوى الواقع الذي أصبح لا يرحم، فتفككت العلاقات بين الأهل والجيران والأنساب، حتى أصبح المرء لا يعرف حال أهله في الحي، ويخلق لذلك ألف عذر وعذر.

بينما نجد الإسلام يسعى جاهدا لجمع شمل الأمة، وما فريضة يوم الجمعة إلا مثال واضح لذلك الاجتماع الأسبوعي، الذي لابد لكل مسلم أن يشهده، إضافة إلى الاجتماع الأكبر المتمثل في الحج، الذي تتسع فيه العلاقات لتشمل البلدان الإسلامية بأكملها دون أن تنسى العيدين اللذان هما مناسبة لتجديد العلاقات الاجتماعية كل ذلك كفيل بأن يظهر ضرورة علاقة المسلم بأخيه المسلم.

"وجمع القوانين التي أملتها السماء، أو وضعتها محاولات البشر، هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية، وبدونها لا تستطيع الحياة الإنسانية أن تستمرّ، لا أخلاقيا ولا ماديا"[47]

وهذا ما كفله الإسلام بتوسيع درجة العلاقة الإنسانية، حيث نظم حقوق وواجبات غير المسلم في المجتمع المسلم، حتى يضمن العلاقات الإنسانية في كل مجالات الحياة، هذه العلاقات التي يضمن بها كل إنسان أن يكون شخصا في كيان واسع جدًا وهو المجتمع الإنساني، فالتربية الاجتماعية هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا الحدّ من العلاقات

الوثيقة والمنظمة "إذ ليس الهدف منها أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة، ولكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه ... أن نعلمه كيف يتحضر"[48].وهي "وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما. وكيف يكوّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ"[49].

وبذلك يمكن لنا الوصول لأن نعيش في ظل الحكمة القائلة: "الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد"[50].

وهذا ما يعبر عن شبكة العلاقات الاجتماعية في أرقى صورها وفي أقصى فاعليتها.

خاتمة:

فالغرب يسعى جاهدا لمحو الديانات وتذويب الثقافات ومسخ الهويات ليتسنى له السيطرة على عقول الناس وثرواتهم، ويفرض عليهم التبعية المطلقة.

لكن الضرورة الحتمية التي جاء بها الإسلام تستدعي الحوار باعتباره مطلبا إنسانيا وواجبا أخلاقيا وشرطا أساسيا للتعاون والتعايش بين الأمم والشعوب.هذا الحوار الذي يشترط أن يقوم على معرفة الآخر واحترام الخصوصية الثقافية والتنوع الديني، والذي يجب أن يستبعد كل طرف من أطرافه محاولة الهيمنة والتسلط على الآخر لتضمن الشعوب التعايش السلمي فيما بينها.

الهوامش:

1- الزبيدي الحنفي:" تاج العروس من جواهر القاموس" دار الفكر، بيروت، 1994، ط1، ص 55.

2- جميل صليبا: " المعجم الفلسفي"، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1971، ط1،ص 725.

3- عبد المنعم الحنفي: "المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة"، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ط3،ص 264.

4- سميرة البدري:" المصطلحات التربوية والنفسية"، دار الثقافة للنشر، عمان، 2005، ط1،ص106.

5- سورة البقرة الآية 180

6- سورة النساء الآية 128

7- سورة الأعراف الآية 163

8- إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات:" المعجم الوسيط"، ج، المكتبة الإسلامية، استنبول،[د ت]، ص180

9- الفيروز ابادي:" القاموس المحيط"، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ط1، ص62

10- أحمد بن منظور: "لسان العرب"، ج3، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث، بيروت، 1988، ص80.

11- نطوان نعمة وعصمان مدور ولويس عجيل:" المنجد في اللغة العربية المعاصرة "،دار المشرق،بيروت،2001، ط2، ص296

12- محمد بدوي:" قاموس إكسفورد المحيط"، إنجليزي عربي، دار أكديما، بيروت، ط1، 2003،ط1، ص 198.

13- Le petite le roux grand format : 2006, Paris, p 391

14- عبد الرحمان بن خلدون:" المقدمة"، تحقيق درويش الحويدي، المكتبة العصرية،بيروت،1999،ط1 ص63

15- حسين الحاج حسن:" حضارة العرب في عصر الجاهلية"، مجد، بيروت، 2006، ط4، ص14.

16- عبد الرحمان بن خلدون:" المقدمة"،ص115.

17- المرجع نفسه، ص117.

18- محمد حموة إسماعيل:"المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية"، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ط1، ص21.

19- المرجع نفسه، ص 22.

20- المرجع نفسه، ص 22.

21- عبد الحميد السمرائي:" تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهدي المرابطين والموحدين"، دار شموع الثقافة، ليبيا، 2002، ط1، ص09.

22- وول ديورانت:" قصة الحضارة"، ترجمة زكي نجيب محمود، تحقيق معي الدين صابر، بيروت،[د ت]، ط1ص87.

23- عطية فتحي الويشي:" الحضارة وإشكالية المصطلح"، مجلة كلية الدعوة، طرابلس، ع16، 1999، ص 376.

24- حسين مؤنس:" الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998،ط2،ص 72.

25- المرجع نفسه، ص 75.

26- بيار بونت وميشال إيزار:" معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا"، ترجمة مصباح الصمد، مؤسسة مجد، بيروت، 2006، ط1،ص 117.

27- مالك بن نبي:" مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، مكتبة عمار، 1971،ط1، ص38.
28- شوقي أبو خليل:" الحضارة العربية الإسلامية"، منشورات كلية الدعوة، طرابلس، 1987،ص 17.
29- مالك بن نبي:" المسلم في عالم الاقتصاد"، دار الفكر، دمشق، 1987،ط3،ص 63.
30- مالك بن نبي:" فكرة الإفريقية الآسيوية"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1992، ط3،ص 55.
31- عبد الفتاح دحماني: مجلة الحقيقة، جامعة أدرار، الجزائر، ع 4، 2004، ص 61.
32- مالك بن نبي:" مجالس دمشق"، دار الفكر، دمشق، 2005، ط1،ص35.
33- مالك بن نبي:" مشكلة الثقافة" ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1984، ط4، ص77.
34- علي شكري:" مذكرات ثقافة تحتضر"، عالم الكتب، بيروت، ص 35.
35- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ط5، ص77.
36- مسعود طاهر:" مجابهة الغرب الثقافي والامبريالي العربي"، ص 26.
37-مالك بن نبي:" وجهة العالم الإسلامي"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط5 ،1986، ص 77.
38-المصدر نفسه، ص 122.
39- شايف عكاشة:" الصراع الحضاري في العالم الإسلامي"، مطبعة بن مرابط، الجزائر،2010، ص 06.
40- مالك بن نبي:" ميلاد مجتمع"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ط3ص39.
41- المرجع نفسه، ص 28.
42- المرجع نفسه، ص 29.
43- المرجع نفسه، ص 31.
44- المرجع نفسه، ص 82.
45- المرجع نفسه، ص 87.
46- المرجع نفسه، ص 89.
47- المرجع نفسه، ص 94.
48- المرجع نفسه، ص 99.
49- المرجع نفسه، ص 100.
50- المرجع نفسه، ص 115.